الجماعة السلفية للدعوة و القتال (في الجزائر)

(الزرقاوي؛ شامة في جبين التاريخ – الحلقة الأولى)

الكاتب: أبي عبيدة الجزائري (حفظه الله)

بسم الله الرحمن الرحيم و الله حسبنا و نعم الوكيل

الحمد لله القائل في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً}.

و الصلاة و السلام على نبيّ الملحمة و المرحمة القائل: (لن يبرح هذا الدين قائما يقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة)، و على آله و صحبه الذين كسّروا جيوش المَرَدة و فتحوا حصون قلاعها، و هجروا في محبّة ربّهم إليه الأوطار و الأوطان و لم يعاودوها بعد وداعها و جاهدوا في الله حق جهاده حتى أمنت الأمة من ضياعها.

و بعد:

فهذه صفحات يرقمها قلم التأريخ تنطق: "الزرقاوي شامة في جبين التاريخ..."

اليوم يوم الخميس ٤ جمادى الثانية ١٤٢٧هجرية، الموافق ٠٨ جون ٢٠٠٦ ميلادية...، و الوقت صباحا..، و النبأ هو استشهاد الشيخ المجاهد أبي مصعب الزرقاوي...!!.

لقد كنت واحدا من أبناء هذه الأمّة ممّن نزل عليهم نبأ استشهاد الشيخ كالصاعقة، إي و الله كالصّاعقة....، فيالله عونك... و يالله رحمتك....و شهد الله كم زادت دقّات قلبي باستمرار و أنا أتابع الحدث عبر إذاعة الــ (BBC).

ثمّ جالت الذاكرة هنا و هناك... و ساحت في الآفاق و ما لبثت حتى تدارَكَتها رحمة الله العزيز الوهّاب... فاستحضَرَتْ بعضَ المعاني التي زرعتها في أرضها مدرسة الجهاد في سبيل الله سبحانه..

مدرسة: {فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ}...

مدرسة: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ}...

مدرسة: {وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ}..

مدرسة: {وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ}..

مدرسة: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً}..

مدرسة: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ}..

مدرسة: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}..

و أخيرا و ليس آخرا مدرسة: {الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}.

فيا لها من مدرسة عريقة... و يا خيبة من تخلّف عنها... يا خيبة من تخلّف عنها...

ثمّ كان بعد هذا أن تذكّرت ذلك العقد الفريد من أسماء الشهداء الذين قضوا نحبهم...، و على رأسهم إمام المتقين و سيّد المرسلين و قائد المجاهدين محمد صلى الله عليه و سلم ثمّ عن يمينه و شماله أبو بكر و عمر و عثمان و علي، و طلحة و الزبير و سيّد الشهداء حمزة

و غيرهم من الصحب الكرام رضوان الله عليهم عدد ما نزل القطر من الغمام...، ثمّ جاء المدد و لحق بذلك العقد الفريد أسماء أخر من شهداء التابعين ثمّ تتابع المدد و انضاف إلى العقد أتباع التابعين و هكذا دواليك عبر القرون فرحم الله شهداء الإسلام... رحم الله شهداء الإسلام...

و ما يزال العقد يَنْضَّم في سلكه اللآلئ ما بقي الجهاد قائما و هو (ماض إلى قيام الساعة)...

لا تعرفهم و لكنّ الله يعرفهم...، و ها {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ} و زادهم هدى... فلله درّهم:

ركبوا العزائم واعتلوا بظهورها * و سَرَوا و ما حنّوا إلى نعمان**

ساروا رويدا ثمّ جـــاؤوا أوّلا * سيـــر الدّليل يؤمّ بالركبـــان**

و كان آخرهم –و ليس اخيرهم– عَلَم من أعلام هذا الزمان...، الشبح المخيف لمرتدين و الأمريكان... إنّه مَن:

يهتزّ "بوشا" على كرسيه فرقا [illegible] خشاه.

لعلّكم قد عرفتموه... {سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً}.

الزرقاوي شَامَةٌ في جبين التَّارِيخ... نعم و الله شامة...

لماذا هذا العنوان...؟ و لماذا هذا الإسم...؟

لا يخفى إسم الزرقاوي على أبناء المسلمين بل و الكافرين...

لقد كنت و أنا أتابع خبر مقتله عبر الإذاعات أَمُرُّ على بعضها أثناء البحث في المذياع فلا أفهم من لغة بعضهم شيئا ما عدا اسم "زرقاوي" !!... فما السرّ... و ما الخبر...؟!

عجيب و غريب أمرك يا أبامصعب...! فمن تكون أنت...؟



كنّا نسمع اسمك في بداية الأمر عبر الإذاعات و القنوات هنا و هناك... ثمّ لا زلت تكبر في العيون و تكبر يوما بعد يوم...! فمن تكون أنت يا أبا مصعب...؟!

و أخيرا و لله الحمد عرفت من تكون يا أبا مصعب الحمد لله أنّي عرفت، لقد عرفت أنّك رجل لا كالرجالو سيرة لا كالسِّيَر... نعم و الله.

عرفت بأنّك صناعة أتقنتها يد مدينة طيّبة مباركة...،فحيّ الله "الزرقاء" و نحن في انتظار المزيد منها...

عرفت بأنّك صاحب الهمّة العالية التي تنازلت لها أعالي الهمم، و صاحب الشجاعة المذكورة التي تضاءلت أمامها شجاعة شجعان الأمم

عرفت بأنّك البطل الذي أقضّ مضاجع الأمريكيين في بلاد الرافدين بل و مضجع كلب الروم بوش في البيت الأسود...

عرفت أبا مصعب بأنّك أحد هؤلاء الذين باعوا لأجل دينهم النفس و النّفيس إذا:

سينطق عنك جهادك في ملإ * و تكبر في العيون إذا ذكـــرت**

ستخفى عن العيون إذا دُفنت * و تبقى في القلوب و لو فقدت**

و الله ستبقى...، و الله ستبقى... و كيف ننساك و:

لغة البطولة من خصائص أمتي * عنّا رواها الآخرون و ترحّموا**

إذا:



البطولات في آفاقنا ذُكرت * فإنّما بك يُضرب المثل!**

عرفت عنك يا أبا مصعب و عرفت...، و اسمحوا لي على عدم الإسهاب فيما عرفت... فالأبطال لا يفي المقصّر في ذكر مآثرهم و مناقبهم مهما سوّد من الصفحات... و حديثي في هذه الكلمات سيكون عبر هذه المحطات:

١. حبّنا ــ نحن المجاهدين في الجزائر ــ للشيخ أبي مصعب رحمه الله:

أخي المجاهد في كلّ مكان:

لقد تغلغل في نفوسنا -نحن أبناء [illegible] الجزائر- حبّ الشيخ أبي مصعب رحمه الله فخالط شغاف قلوبنا... فحدّث عن ذلك و لا حرج، لو دخلت معسكرات المجاهدين لرأيت من ذلك عجبا...، فهذا يردّد أقوال الشيخ من هنا...، و آخر يقرأ أبيات شعر قالها الشيخ من هناك...، و صارت أغلب الأشرطة المتداولة بين الإخوة المجاهدين هي أشرطة الشيخ رحمه الله...

لقد أبدلنا الله بأشرطة مشايخ السوء خيرا...، فكم انتشرت أشرطته في أوساط المجاهدين، و كم تغلغلت معاني كلماته في أعماق السامعين... و لا غرابة فهذا شأن من يقول و يفعل...

و شهد الله أنّ حبّ المجاهدين للشّيخ يصعب وصفه... إي و الله يصعب وصفه... فرحم الله أبا مصعب...



اذا أوقد ناره بالعراق * أضاء الجزائر سنا ناره**

ربّما الآن عرفتم لماذا كان الزرقاوي شَامَةً في جبهة التَّاريخ...

و ستعرفون المزيد بعد حين...

٢. ماذا بعد قتل الشيخ أبي مصعب الزرقاوي رحمه الله ؟:

لقد رحل الشيخ أبو مصعب و قد أدّى الذي عليه...، نحسبه و الله حسيبه، و السؤال:

ما الذي خلّفه الشيخ لأمّته، و ما الذي خطّه لإخوانه و أتباعه...؟

إنّ من الناس مَن ينصر الله بهم دينه في حياتهم و بعد مماتهم... و "دم الشهيد نور و نار"...، و لكن أصحاب النظرة السّطحية و الأفق الضّيّق لا يعلمون و لا يفقهون... فلا يدركون هذا و لا يعقلوه... فهم صرعى كلمة: (قتلوه)!.

إنّ حادثة قتل الغلام خير شاهد و من أروع الأمثلة على الذي نطرق بابه و نقصده...، و الذكيّ يملي عليه فهمه ما لم يُذكر و تكفيه الإشارة عن طول العبارة... و في التلميح ما يغني عن التّصريح...

يغنيك إجمال قولي عن مفصّله في ذكرك البحر معنًى تحته الدّرر!

فانتبه... انتبه..!!



لقد رحل أبا مصعب و خلّف خلفه بطولاته و محاضراته... ذاك المعين الذي لا ينضب، فلينهل منه المسلمون عامّة و المجاهدون خاصّة، الّق العسل و لا تسل...

لقد زاد محاضراته جمالا و معنًى الترجمة الحقيقية لكلماته على أرض الواقع...، لقد صدرت كما قال: "من جندي واقف على عتبات الحرب و أزيز [illegible]معات" .

و هذا هو السرّ البديع الذي جعل كلماته تدفع بنا و تعلّمنا أشياء كثيرة في فترة و جيزة قصيرة... و صارت: (**كالغيث أينما وقع نفع**)...

و يحمل بنا هذا المقام ذكر كلمات [illegible] التي طار بها الركبان...، فأعِرُه سمعك لحظات لا تطول و أرجو أن [illegible] صد[illegible] بابا لما يقول: "ما كانت ألف خطبة و خطبة، و لا ألف رسالة للشهيد لتلهّب ا[illegible] و الجهاد في نفوس المسلمين كما ألهبتها قطرات الدم الزكي الوضّاء، إنّ كلماتنا ستظل عرائس من الشمع حتى إذامتنا دبّت فيها الروح، و كتبت لها الحياة، حيّ الله المجاهدين في سبيل الله، لقد تلفّت المسلمون حين جدّ الجدّو تحرّج الأمر و لم يعد الجهاد هتافا و تصفيقا، بل عملا و تضحية، ولم يعد الكفاح دعاية و تهريجا، بل فداءو استشهادا فقد تلفّت المسلمون.... لقد تلفّتوا فلم يجدوا إلّا المجاهدين في سبيل الله حاضرين للعمل مهيّئين للبذل مستعدّين للفداء، مجرّدين للكفاح،

معتزمين الإستشهاد...، لقد تركوا غيرهم يخطبون و يكتبون، أما هم فذهبوا فعلا إلى ساحات الجهاد، لقد تركوا غيرهم يجتمعون و ينفضّون، أمّا هم فقد حملوا سلاحهم و مضوا صامتين، غيرهم يحاول أن يأخذ طريقه إلى العمل و يحاول أن يبدأ في التدريب، أمّا هم فكانوا وحدهم عزّة الإسلام العظيم، و ذخيرته المخبّى و وقوده الذي يعتمد عليه، لقد أعدّوا أنفسهم للجهاد فلبّوا منذ اليوم الأول لداعي الجهاد...، إنّ الصغار المهزومين لا يدركون روح الإسلام التي يسير على هديها المجاهدون...، إنّ أرواحهم الهزيلة الضئيلة المذهولة لا يمكن أن ترتفع و تتّسع على تلك الآفاق العالية، إنّهم لا يؤمنون بأن لا كفاح بلا عقيدة، وإنّ أصحاب العقيدة هم الذين يكثرون عند الفزع، و يقلّون عند الطمع، إنّ الواقع العملي يؤيّد هذه الحقيقة، و أنّ المجاهدين هم وحدهم اليوم في الميدان لأنّهم هم وحدهم أصحاب أصفى عقيدة تدفع المؤمنين وحدهم نحو الميدان " إهـ.

رحم الله سيد، فهذا هو الوعظ الذي يدخل على القلوب بلا استئذان، لقد دبّت الروح في كلماتك و كتب لها الحياة... فوالله لقد وصفت فأصبت و ذكّرت فنفعت...

٣. الجهاد ليس معلّقا بأشخاص:

يقول أحد قادة الجهاد الإسلامي الشيخ الحافظ يوسف [illegible] العييري تقبّله في الشهداء: "إن المشاهد اليوم أن الأمة الإسلامية [illegible] مقالها تعلق الجهاد بأشخاص فبلسان حالها، و ربما كثير من المس[illegible] الله وإذا مات خدمه فسوف يخلق الله له خدماً يذودون عنه، ولكن حينما نأ[illegible] ذلك القول على الواقع نجد أننا لم نصل بعد إلى خطوات تطبيق هذا المنهج على حياتنا، و إن الناظر اليوم إلى حال الأمة الإسلامية من خلال أدبياتها وخطبها يجد أن شريحة لا يستهان بها من الناس يربطون الأحداث بأشخاص ليس على مستوى الجهاد فحسب بل إنه يتعدى إلى مجال الدعوة والإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر و غيرها.

وما يهمنا في هذه الحلقة هو أن نثبت أن الجهاد غير معلق لا بقيادات ولا بأفراد، وتعليق الجهاد بأشخاص سواء كانوا قيادات أو مجاهدين يعد آفة عظيمة تعصف برسوخ عقيدة شعيرة الجهاد لدى المسلمين، كما أن تعليق الجهاد بأشخاص أيضاً يضعف من قناعة ديمومة الجهاد وصلاحه لكل زمان، بل إنه سيكون أهم عائق نفسي ومنهجي أمام كل من أراد أن يسلك درب الجهاد ويتفرغ لتلك الشعيرة العظيمة.

لقد ربّا الله سبحانه وتعالى أصحاب محمد صلى الله عليه و سلم على التعلق به وحده والتعلق بدينه، وبين لهم أن التعلق بأشخاص منهج باطل يفضي إلى ربط العمل به وقد ينتهي العمل بانتهاء حياة الشخص، ونهي الله سبحانه وتعالى للصحابة رضي الله عنهم بالتعلق بأشخاص لم يأت نهياً عن التعلق بشخص مثلهم كلا، بل إنه جاء نهياً لهم بأن يعلقوا الشعائر بأشرف خلق خلقه الله تعالى سبحانه وتعالى وهو محمد بن عبد الله صلى الله عليه و سلم.

نهاهم الله تعالى عن التعلق بشخص النبي صلى الله عليه و سلم فقال: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ}

وهذه الآية نزلت لتربي الصحابة رضوان الله عليهم وتنهاهم عن المنهج الفاسد الذي يفسد العبادات وهي تعليق العمل بأشخاص [illegible] من تعليق العمل بأشخاص أي إشراكهم مع الله، فهذا شرك أصغر أو أكبر أحياناً، ولكن مقصودنا من تعليق العمل بأشخاص هو أن يرى المسلم بأن هذه العبادة لا سيما الجهاد لم تنجح أو تتقدم أو تحقق شيئاً إلا لأن الله تعالى جعل هذا الرجل أو ذاك على طليعة العاملين لها، وهذه هي أقل الصور التي تدخل في نهي الله سبحانه وتعالى عن ذلك المنهج، فقد نهى الله أصحاب الرسول صلى الله عليه و سلم عن ذلك، وأقوال المفسرين في هذه الآية توضح المقصود من كلامنا السابق، وتبين أيضاً خطر ذلك المنهج الذي يؤدي حتماً إلى ترك الدين أو ضعف العمل له.

قال ابن كثير في تفسير الآية المتقدمة: ٤١٠/١: "لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد وقتل من قتل منهم نادى الشيطان ألا إن محمدا قد قتل، ورجع ابن قمئة إلى المشركين فقال لهم قتلت محمدا وإنما كان قد ضرب رسول الله فشجه في رأسه فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس واعتقدوا أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قد قتل، وجوزوا عليه ذلك كما قد قص الله عن كثير من الأنبياء عليهم السلام، فحصل ضعف ووهن وتأخر عن القتال، ففي ذلك أنزل الله تعالى {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ} أي له أسوة بهم في الرسالة وفي جواز القتل عليه.

قال ابن أبي نجيح عن أبيه أن رجلا من المهاجرين مر على رجل من الأنصار وهو يتشحط في دمه فقال له يا فلان أشعرت أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد قتل فقال الأنصاري إن كان محمد قد قتل فقد بلّغ فقاتلوا عن دينكم، فنزل {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ} رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في دلائل النبوة.

ثم قال تعالى منكرا على من حصل له ضعف {أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} أي رجعتم القهقري {وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} أي الذين قاموا بطاعته وقاتلوا عن دينه واتبعوا رسوله حيا وميتا.

وكذلك ثبت في الصحاح والمسانيد والسنن وغيرها من كتب الإسلام من طرق متعددة تفيد القطع وقد ذكرت ذلك في مسندي الشيخين ابي بكر وعمر رضي الله عنهما أن الصديق رضي الله عنه تلا هذه الآية لما مات رسول الله صلى الله عليه و سلم وقال البخاري أن عائشة رضي الله عنها قالت: أقبل أبو بكر رضي الله عنه على فرس من مسكنه بالسنح حتى نزل فدخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فتيمم رسول الله صلى الله عليه و سلم وهو مغطى بثوب حبرة، فكشف عن وجهه ثم أكب

عليه وقبله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي والله لا يجمع الله عليك موتتين أما الموتة التي كتبت عليك فقدمتها.

وقال الزهري وحدثني أبو سلمة عن ابن عباس أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس وقال: أجلس يا عمر، قال أبو بكر: أما بعد من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله تعالى {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ}، قال: فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر فتلاها منه الناس كلهم فما أسمع بشرا من الناس إلا يتلوها وأخبرني سعيد بن المسيب أن عمر قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعرقت حتى ما تقلني رجلاي وحتى هويت إلى الأرض.

وقال أبو القاسم الطبراني عن ابن عباس أن عليا كان يقول في حياة رسول الله صلى الله عليه و سلم: {أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ} والله لا ننقلب على أعقابنا بعد إذ هدانا الله، والله لئن مات أو قتل لاقاتلن عليه حتى أموت والله إني لأخوه ووليه وابن عمه ووارثه فمن أحق به مني.

وقوله تعالى: {مَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً}، أي لا يموت أحد إلا بقدر الله وحتى يستوفي المدة التي [illegible]ه، و[illegible] {كِتَاباً مُؤَجَّلاً}، كقوله: {وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ}، وكقوله: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمّىً عِنْدَهُ}، وهذه الاية فيها تشجيع للجبناء وترغيب لهم في القتال؛ فإن الإقدام والإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه، كما قال ابن أبي حاتم حدثنا العباس بن يزيد العبدي قال سمعت أبا معاوية عن الأعمش عن حبيب بن صهبان قال: قال رجل من المسلمين وهو حجر بن عدي ما يمنعكم أن تعبروا إلى هؤلاء العدو هذه النقطة يعني دجلة {مَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً}، ثم أقحم

فرسه دجلة فلما أقحم أقحم الناس فلما رآهم العدو قالوا ديوان –أي جن بالفارسية- فهربوا " أهـــ كلامه رحمه الله.

قال صاحب زاد المسير في تفسيره عن هذه الآية: "قوله تعالى {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ} قال ابن عباس: صاح الشيطان يوم أحد: قتل محمد، فقال قوم لئن كان قتل لنعطينهم بأيدينا إنهم لعشائرنا وإخواننا ولو كان محمد حيا لم نهزم فترخصوا في الفرار، فنزلت هذه الآية، وقال الضحاك: قال قوم من المنافقين: قتل محمد فالحقوا بدينكم الأول، فنزلت هذه الآية، وقال قتادة قال أناس: لو كان نبياً ما قتل".

وقال صاحب فتح القدير ١/٣٨٥ في تفسيره هذه الآية وقوله {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ} سبب نزول هذه ما سيأتي من أن النبي صلى الله عليه و سلم لما أصيب في يوم أحد صاح الشيطان قائلاً: قد قتل محمد ففشل بعض المسلمين حتى قال قائل: قد أصيب محمد فأعطوا بأيديكم فإنما هم إخوانكم، وقال آخر: لو كان رسولا ما قتل، فرد الله عليهم ذلك واخبرهم بأنه رسول قد خلت من قبله الرسل وسيخلو كما خلوا، فجملة قوله {قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ} صفة لرسول والقصر قصر إفراد كأنهم استبعدوا هلاكه فأثبتوا له صفتين؛ الرسالة وكونه لا يهلك، فرد الله عليهم ذلك بأنه رسول لا يتجاوز ذلك إلى صفة عدم الهلاك، وقيل هو قصر قلب وقرأ ابن عباس (قد خلت من قبل رسل)، ثم أنكر الله عليهم بقوله {أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ} أي كيف ترتدون وتتركون دينه إذا مات أو قتل مع علمكم أن الرسل تخلو ويتمسك أتباعهم بدينهم وإن فقدوا بموت أو قتل، قوله {وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ} أي بإدباره عن القتال أو بارتداده عن الإسلام فلن يضر الله شيئا من الضرر وإنما يضر نفسه {وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} أي الذين صبروا وقاتلوا واستشهدوا لأنهم بذلك شكروا نعمة الله عليهم بالإسلام ومن امتثل ما أمر به فقد شكر النعمة التي أنعم الله بها عليه " أهـــ كلامه رحمه الله.

قال صاحب العجاب في بيان الأسباب: "قوله تعالى {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ} أخرج الطبري من طريق سعيد بن أبي عروبة ومن طريق الربيع بن أنس قالا: لما فقدوا النبي يوم أحد وتناعوه قال ناس: لو كان نبيا ما قتل، وقال ناس: قاتلوا على ما قاتل عليه نبيكم حتى يفتح الله عليكم أو تلحقوا به فترلت، زاد الربيع ذكر أن رجلا من المهاجرين مر على رجل من الأنصار وهو يتشحط في دمه فقال أشعرت أن محمدا قتل فقال الأنصاري إن كان محمد قتل فقد بلّغ فقاتلوا عن دينكم فترلت.

ومن طريق أسباط عن السدي لما كان يوم أحد فذكر القصة وفيه وفشا في الناس أن محمدا قد قتل فقال بعضهم: ليت لنا رسولا إلى عبد الله بن أبي يأخذ لنا أمانا من أبي سفيان، يا قوم ارجعوا إلى قومكم قبل أن تقتلوا، فقال أنس بن النضر: يا قوم إن كان محمد قتل فإن رب محمد لم يقتل فقاتلوا على دينكم، وانطلق رسول الله حتى أتى الصخرة فاجتمع عليه ناس فترل في الذين قالوا إن محمدا قد قتل {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ}.

ومن طريق ابن إسحاق حدثني القاسم بن عبد الرحمن بن رافع الأنصاري من بني عدي بن النجار، أن أنس بن النضر مال إلى نفر من المهاجرين والأنصار وقد ألقوا بأيديهم فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قتل رسول الله!، فقال لهم: فما تصنعون بالحياة بعده، موتوا على ما مات عليه، ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل" أنتهى كلامه رحمه الله.

وكلام أهل التفسير في سبب نزول الآية وفي تفسيرها كلام يطول نقله، ولكننا نستخلص من كلامهم السابق، **أن الذين كانوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحد وسمعوا بخبر قتله كانوا بين منهجين؛ أصحاب منهج مذموم، وأصحاب منهج ممدوح.**

فأصحاب المنهج المذموم؛ هم الذين حذرهم الله في الآية وحذر من منهجهم المذموم، و هو تعليق العمل بأشخاص حتى لو كان الشخص رسول الله صلى الله عليه و سلم،

فأصحاب ذلك المنهج المذموم كانوا طائفتين؛ طائفة فتروا عن العمل وأصابهم الضعف والخور بسبب الصدمة التي جاءتهم حتى فكروا بالسلامة من القتل وأخذ الأمان من الكافرين، وطائفة أخرى من أصحاب المنهج المذموم كان ضلالهم أشد فقد اعتقدت تلك الطائفة الكفر وصرحت به وهم الذين قالوا لو كان نبياً ما قتل، أو قالوا ارجعوا إلى دينكم الأول قبل أن تقتلوا.

وقول هاتين الطائفتين من أصحاب المنهج المذموم هو قول كثير من المنتسبين إلى الإسلام اليوم، الذين ينعقون في الصحف والمجلات والقنوات، حيث قالوا لو كان جهاد الطالبان والعرب معهم حقاً ما أخرجوا من المدن وما هزموا، وطائفة أخرى تقول خير (للأفغان العرب) أن يضعوا أيديهم في أيدي حكوماتهم ليخرجوا من هذا المأزق، فما أشبه الليلة بالبارحة، فقوم استدلوا بالهزيمة العسكرية على بطلان دين محمد صلى الله عليه و سلم وأنكروا رسالته لما وصلهم خبر مقتله وكانوا يقاتلون معه في الميدان، واليوم يتأكد ذلك المنهج واضحاً من أصحاب الضلال الذي استدلوا ببطلان منهج الطالبان والمجاهدين بالهزيمة العسكرية، فالتاريخ يعيد نفسه، وأهل الضلال لهم سلف يسبقوهم في كل شر.

ولكن أهل الهدى والدين الحق وهم أصحاب المنهج الثاني؛ المنهج الممدوح الذي نقله لنا أهل التفسير أثناء المعركة، هم الذين أجابوا على خبر مقتل النبي صلى الله عليه و سلم بقول أنس بن النضر رضي الله عنه حينما مر على نفر من المهاجرين والأنصار وقد ألقوا بأيديهم فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قتل رسول الله، فقال: فما تصعون بالحياة بعده، موتوا على ما مات عليه، ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل.

ويمثل هذا المنهج أيضاً أبو بكر الصديق رضي الله عنه؛ الذي قال بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه و سلم: (من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت).

ويمثل منهجهم أيضاً علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ الذي قال بعدما قرأ الآية {وَمَا مُحَمَّدٌ...}: (والله لا ننقلب على أعقابنا بعد إذ هدانا الله والله لئن مات أو قتل لأُقاتلن عليه حتى أموت).

وهذا هو منهج الصحابة جميعاً رضي الله عنهم؛ فهم الذين كانوا يعبدون الله حقاً وبعد وفاة النبي صلى الله عليه و سلم، واصلوا الطريق و لم يفتروا لا عن الجهاد ولا عن الدعوة والعبادة بل ساروا على ما رباهم عليه رسول الله صلى الله عليه و سلم.

فإن هزموا تمثلوا قول الله تعالى: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}، وقوله تعالى: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

وإن انتصروا تمثلوا قول الله تعالى: {وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}.

هذا هو المنهج الحق الذي يرتضيه الله لنا، أن يكون العمل متعلقاً بالأدلة الشرعية، والحكم على الأمور هل هي حق أم باطل لا يكون بناءً على ما حققته من نتائج، بل إن الحكم على أي قضية يكون بناءً على الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة، ومن أراد أن يحكم على المعارك بنتائجها فيلزمه على هذا القياس أن يقول والعياذ بالله معركة أحد معركة باطلة أخطأ رسول الله صلى الله عليه و سلم بخوضها، لأنه إن كانت الهزيمة دليل على بطلان المنهج عند أهل الإرجاف والجهل.

فأصحاب المنهج الباطل الذين أنكروا نبوة النبي صلى الله عليه و سلم وأنكروا صحة هذا الدين، هم الذين علقوا الدين بأشخاص وعلقوا الجهاد برموز، ومنهجهم أدى بهم إلى فساد عظيم، **حيث أنكروا المقدمات بسبب بطلان النتائج أو فشلها**، ومتى ما وصل المرء

إلى هذا المنهج فسيقع حتما في الكفر أو اليأس والقنوط، وهذا هو منهج كثير من الرويبضات اليوم، الذين لا يستحيون من الله ولا من عباده.

ففي كل حدث لهم قول يناقض ما قبله بأيام، فإذا رأوا نصراً أشادوا وزادوا وأعادوا في المدح والتمجيد، وإذا رأوا هزيمة وابتلاءً من الله لعباده ضللوا وبدعوا ونقدوا وسبوا وشتموا.

ولعل أعظم حكمة لله سبحانه وتعالى في لحوق الهزيمة بالمجاهدين هو تصفية صفوفهم وتمحيصهم أولاً، ثم تخليص من تمسّحوا بهم ونسبوا أنفسهم إليهم.

وقد كشف الله أساليبهم و وصفهم وصفاً دقيقاً حيث قال: {وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً #وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً}

وقال الله عنهم فاضحاً لأساليبهم العفنة: {الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً}.

نعم شعيرة الجهاد لا يقوم بها إلا [illegible] ودون النصر والتمكين مفاوز تنقطع فيها أعناق الإبل، وهذا الشعيرة أيضاً لا [illegible] اليوم إلا من أعد العدة للبلاء والفتنة، أما من كان منهجه منهجاً مائعاً هلاميا لا يُعرف هل هو مناصر للجهاد أو معارض له، فيكفيهم كشف الله لحيلهم في هذه الآيات وفي سورة التوبة فضح لحيلهم الشيطانية وتعرية لمناهجهم الباطلة.

إن تعليق الجهاد أو المعركة بأشخاص لا يفضي إلا إلى هزيمة محققة، فإن لم تكن هزيمة حسية في الميدان فإنها هزيمة معنوية تتمثل في الفتور عن الجهاد عند فقدان القيادة التي ظن المسلمون أنهم لا ينصرون إلا بها، لذا فإنه من الخطأ أن يتعلق الناس بأشخاص أو بقيادات، فيجب تحرير شعيرة الجهاد من ربطها بالرموز، نعم نحتاج للقيادة لربط المجاهدين بها ونحتاج للقيادة للتخطيط والتدبير، ولكن فقدان القيادة لا يعني تكسر الروابط التي بين المسلمين و شعيرة الجهاد، وكما أخرجت ساحات الجهاد قيادات بهذا الحجم فإنها ستستمر بإخراج القيادات.

والتاريخ شاهد على أنه ما خلا عصر من العصور بعد النبي صلى الله عليه و سلم إلا وفيه أسود يذودون عن هذا الدين حتى يخيل لمن سمع عنهم أنه لم يسبق للأمة مثلهم، و لم تعقم نساء المسلمين أن يلدن مثل عمر و علي وخالد والمقداد وعكرمة وصلاح الدين وقطز فالأمة كالغيث لا يعرف الخير فيها هل هو في أولها أم في آخرها.

وإن قتل القيادة لدى المسلمين الذين تربوا على عدم تعليق الجهاد بالرموز لا يزيدهم على مبدئهم وطريقهم إلا إصراراً، لأنهم يعبدون رب الجهاد لا قيادة الجهاد، فالقيادات موجودة في أرض المعركة وهي معرضة للقتل كما يتعرض للقتل أي جندي في المعركة، بل إن القادة يبحثون عن الشهادة وينتظرون اليوم الذي يزفون فيه إلى الحور العين ويتشرفون برؤية رب العالمين، وكلهم يحرص على ذلك اليوم ويسعى له ويتمناه.

فإذا حصل للقادة ما تمنوه كأن يقتل الملا عمر أو الشيخ أسامه أو القائد شامل باسييف أو القائد خطاب أو غيرهم من قادة الجهاد في كل مكان حفظهم الله جميعاً، فإن حصولهم على ما تمنوه ودعوا الله به لا يعد إلا نصراً لهم بأشخاصهم، أما الجهاد فإنه لن يضيع فهو شعيرة تكفل الله بدوامها إلى يوم القيامة، ووعد الله عباده بالنصر إذا حققوا شروط النصر سواءً كانت معهم تلك القيادات أو قتلت في سبيل الله تعالى.

فحري بنا ألا نعلق الجهاد بأشخاص ولا نربط الحرب برموز، وكما يقول الشيخ سليمان أبو غيث في كلمة له [قبل أيام] "إذا قتل أسامه فألف أسامة سيحملون الراية من بعده".

وقال الشيخ أسامه بنفسه في إحدى اللقاءات المصورة له عندما سئل عن إمكانية تفكك القاعدة والأفغان العرب إذا ما حصل اغتياله، فقال:

(إن اغتيالي أعدّه شهادة في سبيل الله تعالى وهذا ما كنت أتمناه وأسأل الله أن يرزقني الشهادة، وأسامه ما هو إلا فرد من أبناء هذه الأمة، وفي الأمة رجال كثر مستعدون لفداء هذا الدين بأنفسهم وبما يملكون، فأسامه ليس فرداً بل إنه يمثل منهجاً يؤمن به كل أبناء الأمة.

وختاماً؛ فإنّنا نحذّر أبناء المسلمين جميعاً أن يعلقوا الجهاد برموز أو يعلّقوا المعركة بأشخاص، فهذا منهج باطل وشرّ عظيم يفسد الدين والدنيا، فالجهاد شعيرة من شعائر الله تعالى، ومن ثوابتنا أنه ماض إلى يوم القيامة، وقد مات النبيّ صلى الله عليه و سلم و لم يتغيّر منهج الصحابة في الجهاد وزادت فتوحاتهم، ومات أبو بكر رضي الله عنه وتوسّعت دولة الإسلام و لم تتأثر شعيرة الجهاد، وقتل عمر رضي الله عنه وما زاد المسلمين في الأرض إلا انتشاراً، وهكذا كان أمر المسلمين جيلاً من بعد جيل.

من ثوابتنا أيضاً أن الجهاد مبدأ و[illegible] قيمة [illegible] ولا تتزعزع بفقد أشخاص ولا قيادات، نسأل الله تعالى أن يهدينا الصراط المستقيم ويعلي شأن أمّتنا ويعزّها على أمم الكفر قاطبة، إنّه ولي ذلك والقادر عليه) **إنتهى كلام الشيخ أسامة حفظه الله.**

فلاحظ رحمك الله ما الذي يوصي به القادة العظام لهذا الدين العظيم... و في هذه الجملة ما يكفي...

....يتبع في الحلقة القادمة إن شاء الله...

المصدر: الجماعة – العدد الثامن

(مجلة دورية تهتم بشؤون الجهاد الجزائري)

جمادى الثانية ١٤٢٧ هـ

يونيو/حزيران ٢٠٠٦ م

